﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين كون الإيمان حاصلًا بالمشيئة، والنَّظر في بدائع الخلق في الكون

لمّا بيَّن ﷻ أنَّ الإيمان لا يحصل إلّا بمشيئة الله تعالى؛ أمر هنا بالنَّظر والاستدلال بالدَّلائل السَّماوية والأرضيَّة، حتّى لا يُتَوَهَّمَ أنَّ الحقَّ هو الجبر المحض، فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾[1]، وذلك رجاء الالتفات إلى أنَّه تعالى "يدبِّر أمرها، ويقوم على وجودها، ويسيِّرها بإرادته، لا تتحرَّك حركة عن حركة إلّا بإذنه سبحانه بديع السَّموات والأرض"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِي﴾: أصْلُ الغنى يَدُلُّ على الكِفاية والسَّعة، وكَثْرَةِ المال، يُقال: غَنِيَ الرَّجُلُ، يَغْنَى، فهو غَنِيٌّ؛ إذا كان مُوسِعًا كَثِيرَ المالِ، وضِدُّه: الفَقْرُ[3]، وحقيقَتُه: عَدَمُ الحاجَةِ للآخرين، سَواءً كان ذلك في المالِ، أو في القُوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك. والغَناءُ: الاستِغْناءُ والكِفايةُ، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مجزئ، وقد غَنِيَ عنه، فهو غانٍ[4]، والمراد بالغنى في الآية: عدم الجدوى.

2) ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾: أصلُ الآية العلامة الثّابتة الدّالَّةُ على أمْرٍ مِنْ شَأْنِه أنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يعتبر بها. الثّاني: العلامة، قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرُّوم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيَّته. والوجهان مُتقاربان يصلح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/306، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/363.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3639.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).

استعمال أحدهما في موضع الآخر[1]، فالآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّه: دلائله وعَجائِبُه[2]، وهي ما أشار إليه سبحانه قَبْل ذلك بقوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

3) ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: من نذر، والإنذار: الإبلاغ، والاسم النَّذر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 16]، أي: إنذاري، والنَّذير المنذِر، والإنذار أيضًا. و(النَّذر) واحد (النُّذور)، وقد نذر للّه كذا من باب ضرب ونصر[4]، وأصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلَّا في التَّخويفِ[5]، والنُّذُرُ: جَمَاعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسم من الإنْذَار. والتَّنَاذُرُ: إنْذَارُ بَعْضِهم بَعْضًا[6]. ومِنْهُ النَّذْرُ، وَهُوَ أَنَّهُ يَخَافُ؛ إذا أخْلَفَ. والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أيْ: أُوجِبُ[7]، والمراد بالنُّذُر في الآية: مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مخُوفٍ حتَّى يحذَره[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وجُـوبُ النَّـظر في دلائل القدرة للاهتداء بها إلى معرفة الخالِق

يقول الحقُّ ﷻ: قُلْ - يا محمد ﷺ - للمُشركينَ الَّذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجِبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدَّوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللّه في ربوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرتِه وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلب

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (إبي).
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(4) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 308.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/137.

الآياتِ، والآياتُ والعِبَرُ والرُّسُلُ المُنذِرةُ، لا تنفَعُ قَومًا لا يُؤمنونَ بشيء من ذلك؛ لإعراضِهم وعنادِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجملة الاستئنافيَّةِ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ في السّياق:

النَّظرُ العقليُّ في الكون دعوة إلى الإقناع دون إكراه

لمَّا تقرَّر ما مضى من النَّهي عن الإصغاء إليهم في طلب الآيات، وختم بتعليق الأمر بمجرد المشيئة، كان كأنَّه قيل: فماذا يُقال لهم إذا طلبوا؟ فقال: ﴿قُلِ﴾ أي: يا أشرف الخلق لهم غير مهتمٍّ بأمرهم، ومنبِّهًا لهم على إبطال مذهب الجبر المتعلِّق أصحابه بنحو هذه الآية؛ لأنَّ المشيئة مغيَّبة، والعبد مأمورٌ ببذل الجهد في الطّاعة بما له من القدرة والاختيار[2]. فهذه الجملة استئناف ناشئ عن قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، فقسَّم النّاس إلى قسمين: مؤمنين وكافرين، أي: فادعهم إلى النَّظر في دلائل الوحدانيَّة والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان، ودفْعِ غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النَّظر والاستدلال، بما هو حول الإنسان من أحوال الموجوداتِ، وتصاريفها الدّالَّة على الوحدانيَّة، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوالِ النّور والظُّلمة، والرّياح والسَّحاب والمطر، وكذلك البحارُ والجبال[3].

دلالةُ الفعل ﴿قُلِ﴾:

الدَّعوةُ إلى الاهتمام بالنَّظر في صنع الله في كونه

افتُتحتِ الآية: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بـ (قل) للاهتمام بمضمونها[4]، والمعنى: قلْ لهم يا أكمل الرُّسل على

(1) ابن جرير جامع البيان: 12/300، 301، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/327، 328، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/145، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/396، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/211.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/295.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/295.

مقتضى رتبة النُّبوَّة، تهييجًا لهم وتحريكًا على ما في استعداداتهم وقابلياتهم[1]، وفيه إيذانٌ بأهمِّيَّة المقول، وتفخيمٌ لشأنه؛ لما فيه من البراهين الساطعة، والأدلّة القاطعة على فطريَّة الإيمان باللّه الخالق المصوِّر المُبْدِئ المُعيد القائم على كلِّ نفس بما كسبت[2].

دلالة الفعل ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

الـدّلالـةُ على إعمال النَّظرين القلبيِّ والبصريِّ في الآيـات الكونيّة

في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أمرٌ للكفّار بالاعتبار، والنَّظر في المصنوعات الدّالَّة على الصّانع من آيات السَّموات وأفلاكها وكواكبها، وسحابها، ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك، فهو ينهيكم إلى المعرفة باللّه وبوحدانيَّته[3]. والمقصود: انظروا ما يدلُّكم على جواب هذا الاستفهام، فكلُّ شيء له حالة، فهو مراد بالنَّظر العقليِّ بتركيبه في صورة مفعولين، نحو: انظروا الشَّمس طالعة، وانظروا السَّحاب ممطرًا، وهكذا، وكلُّ شيء هو في ذاته آية، فهو مراد بالنَّظر البصريِّ، نحو: انظروا إنبات الأرض بعد جدبها؛ فهو آية على وقوع البعث[4]. فالنَّظر: هُنا مستعملٌ فيما يصلح للنَّظر القلبيِّ والنَّظر البصريِّ، ولذلك عدل عن إعماله عمل أحد الفعلين، لكيلا يتمحَّضَ له، فجيء بعده بالاستفهام المعلَّق لِكِلا الفعلين، بحيث أصبح حمْلُ النَّظر على كليهما على حدٍّ السَّواءِ، فصار صالحًا للمعنيَين الحقيقيِّ والمجازيِّ، وذلك من مقاصد القرآن[5]. أي: انظروا بأبصاركم وبصائركم؛ لتخرجوا بالانتفاع بالعقل عن عدادِ البهائم[6]، وتتحرَّروا من ظلمات الوهم، إلى معارج الفهم، ومن غشاوات الضَّلالة إلى أنوارِ الاهتداء ومعالم الدِّلالة.

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/344.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(3) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/269.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/2956.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/211.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

التفكُّرُ يُظهِرُ الحقَّ

في فعل ﴿ٱنظُرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استعارة تبعيَّةٌ؛ إذ استُعير النظر للتفكُّر المُفضي إلى الإيمان الصادق، بجامع الوضوح في كلٍّ؛ أي: تفكَّروا تفكُّرًا يُجلي لكم الحقَّ، كما يُجلي النَّظر صور المرئيات[1].

فائدةُ الأمرِ بالنَّظر بعد تأكيد المشيئة في الآيات السَّابقة:

الأمـرُ بالنَّظر والتَّفكير وإنذار المهملين لهما

جاء الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالنَّظر بعد تأكيد المشيئة، حتَّى لا يُزْهَدَ في النَّظر اتِّكالًا على المشيئة، أي: انظروا في عجائب صنعه لتدُلَّكم على وحدته وكمال قُدرته[2]، وهو أمر منه تعالى لعباده بالتَّفكُّر بخلق الملكوت، وما فيها من الآيات الباهرة ذات النِّظام البديع، كالكواكب النيِّرة، والمجرّات العجيبةِ، والبحار الواسعة، وقد قيل:

فيا عَجَبًا كَيفَ يُعْصَى الإلَـ *** ـهُ أَمْ كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ

وَلِلّه في كُلِّ تَحريكَةٍ *** وَتَسْكينَةٍ أَبَدًا شاهِدُ[3]

سِرُّ حذف جواب الأمر بعد قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

وقوعُ الأمر عَقِبَ ذكـر أسـباب الإيمـان الدّالّة عليه

طُوي في الكلام جواب الأمر، لوقوع الأمر عقبَ أسباب الإيمان، وتقديره: (انظروا؛ تروا آيات موصلة إلى الإيمان)[4]، وفي ذلك الحذف بلاغةٌ ساميَةٌ، فهو يقول لرسوله ﷺ، كي يخاطب أهلَ مكَّةَ من العتاة الطُّغاة، فيقول لهم: "تفكَّروا، أيُّ شيء بديع في السَّموات والأرض من عجائب صنع اللّه الدّالة على وحدته وكمال قدرته"[5].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/125.

(3) الأبيات نسبها بعضهم إلى الشّاعر لبيد بن ربيعة، والصّحيح أنّها لأبي العتاهية، يُنظر: ديوانه، ص: 104.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/296.

(5) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.

موضعُ الاستفهام ودلالته بعد الأمر:

الـدَّلالـةُ على الاستـفـهـام والتَّـنـبـيـه على عجائب الملكوت

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ﴿مَاذَا﴾: استفهامٌ وتنبيه على عجائب السَّموات، وارتباط نجومها وأبراجها برباط مُحكم، لا يمكن أن يسير نجمٌ في غير مساره[1]، فانظروا ما فيها من الآيات والعِبَرِ، وعجائب الصُّنع، ليدلَّكم على وحدانيَّة الله تعالى، وكمال قدرته[2].

دلالةُ التَّركيب بين حرف الاستفهام والموصول:

التَّعميمُ لتوجيه كـلِّ نـفـس إلى الأيـسـر، استـدلال عليه لديها

تعني ﴿مَاذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: ما الَّذي، و(ما) استفهام، و(ذا) أصله اسم إشارة، وهو إذا وقع بعد (ما) قام مقام الاسم الموصول، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قائم مقام صلة الموصول، وأصل وضع التَّركيب: ما هذا في السَّموات والأرض، أي: ما المشار إليه حال كونه في السَّموات والأرض، فكثر استعماله، حتَّى صار في معنى: ما الَّذي[3]، فعمَّم ما في السَّموات والأرض، لتتوجه كلُّ نفس إلى ما هو أقرب إليها، وأيسر استدلالًا عليه لديها[4].

أثرُ القطع والوصل في ﴿مَاذَا﴾ على معنى الآية:

شـمـولُ دلالـة المـوصـول (ذا) عـلى وحـدانـيَّـة الله، مع القطع والوصل

﴿مَاذَا﴾ يحتمل أن تكون (ما) استفهامية مبتدأ، و(ذا) اسم موصول خبر، وتكون الجملة في محلٍّ نصب لتعليق العامل، وهو ﴿ٱنظُرُواْ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿مَاذَا﴾ بتمامها استفهامًا في محلٍّ رفع مبتدأ، وفي السَّموات خبرُه، وعلى الأوَّل يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقين بمحذوف، هو الصِّلة للموصول، أي: ما الَّذي استقرَّ في السَّموات والأرض[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3639.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/188.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/296.
(5) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/303.

فلفظ (ذا) لما قام مقام اسم الموصول، صار من صيغ العموم، فشمل جميع الأجرام وأعراضها الدَّالة على وحدانيَّة الله وحكمته، وأخصُّ ذلك التَّأمُّل في خُلق النَّبيِّ ﷺ ونشأة دعوته، والنَّظرِ فيما جاء به، فكلُّ ذلك دلائل على كماله وصدقه[1]. فلفظ (ماذا) جُعل بالتَّركيب اسمًا واحدًا مغلِّبًا فيه الاستفهام على اسم الإشارة، ويجوز أن يكون اسمين بمعنى (ما الَّذي)، على أن تكون (ما) استفهاميَّة مرفوعة على الابتداء، والظَّرف صلةُ الَّذي، والجملة خبر للمبتدأ، وعلى التَّقديرين فالمبتدأ والخبر في محلِّ النَّصب بإسقاط الخافض، وفعل النَّظر معلَّقٌ بالاستفهام[2].

بلاغةُ جَمْعِ السّمواتِ، وإفرادِ الأرْضِ وعطفها عليها:

بيانُ كونِ السَّموات أجناسًا مختلفةً، والأرضِ جنسًا واحدًا

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، جُمعتِ السَّموات؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماء من جنس غير الأخرى، وَوَحَّد الأرض؛ لأنَّها كلَّها تُراب[3]، ولأنَّ الأرض عالمٌ واحد[4]، والسَّموات كلٌّ، والأرض جزء من السَّماء الدُّنيا، وكلاهما جزء من المجرَّة الَّتي ينتميان إليها، وفي عظمة السَّموات على اختلاف طبقاتها دليلٌ على عظمة خالقها، وكونه خلق السَّموات الفسيحة مع اتِّساعها وفخامتها، لا يعجزه أنْ يخلق الأرض، وهي جِرم صغير؛ إذا ما قورن بالسَّموات الفخام.

بلاغة إيجازِ القصر:

عجائبُ ملكوت الله تفخيمٌ إثرَ تفخيم

جملة ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تفخيمٌ إثرَ تفخيم لعجائب ملكوتِ الله تعالى، وهو من الكلام القليل المتضمِّن كلامًا كثيرًا ليندرج ضمن إيجاز القصر في كلا طرفيه: فالذي في السَّموات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/85.
(3) النَّيسابوريُّ، التَّفسير البسيط: 3/453، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/195.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/77.

رفعها بغير عمدٍ، وما فيها من أجرامٍ، والذي في الأرض ما فيها من شواخصَ، وغير ذلك كثيرٌ[1].

سرُّ تقديم السَّموات على الأرض:

مكانةُ السَّمواتِ وعظمتُها، وكونُها مصدرَ تنزُّلِ القرآن الكريم

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّمواتِ على الأرضِ، جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ؛ فإنَّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّمواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لموجبٍ دلاليٍّ، وقُدِّمت أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلى، فالشَّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهمِّيَّةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنَّةُ والملأ الأعلى، وسوى ذلكَ من الغيبيّاتِ.

الموقع البيانيُّ لجملة ﴿وَمَا تُغۡنِ ٱلۡأٓيَٰتُ﴾:

الدَّلالةُ على التَّوكيدِ والتَّقويةِ ملمحٌ بلاغيٌّ مؤثِّرٌ في السّياق

جملة: ﴿وَمَا تُغۡنِ ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، إمّا حاليَّةٌ من الواو في قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ كأنَّه قيل: (انظروا والحال أنَّ النَّظر لا ينفعكم)، وإمّا معترضة و(ما) نافية، أو استفهاميَّة في محلِّ نصبٍ، على أنَّها مفعول مطلق لتغني، أي: أيَّ غناءٍ تُغني، وهي على كلا الاحتمالين توكيدٌ، لما قرَّرته الآيات السَّابقة، من أنَّه لا تؤمن نفس إلّا بإذن الله، فهذا النَّظر لن يصل بصاحبه إلى الإيمان، ولن يفتحَ قلبه له، إلّا إذا كان هذا النّاظر ممَّن أراد الله لهم أن يكونوا مؤمنين[2].

فائدةُ استعمال (ما):

إفادةُ النَّفي والاستفهام توبيخ المشركين، من عهد النَّبيّ الأمين

(ما) في ﴿وَمَا تُغۡنِ ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ إمّا نافية، أو استفهاميَّة[3]، فعلى الاحتمال الأوَّل يكون المعنى: الآيات والنُّذر، وهم الأنبياء، لا تغني إلّا بمشيئته؛ وعلى الاحتمال الثّاني تكون (ما) استفهامًا إنكاريًا على جهة التَّقرير الَّذي في ضمنه نفيُ وقوع الغنى، فيكون المعنى: وأيَّ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1090.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/212.

شيء تجدي الآيات السَّماوية والأرضيَّة، والنُّذر بحججها وبراهينها، أمام قوم جاحدين معاندين، قد استحبّوا العمى على الهدى؟ وفي الآية على هذا: توبيخ لحاضري النَّبيّ (1)ﷺ.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿تُغۡنِ﴾:

من يُعرض عن أسباب الهدايةِ؛ يعشُ في بؤس

كلمة ﴿تُغۡنِ﴾ في جملة ﴿وَمَا تُغۡنِ ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ وردت على سبيل الاستعارة التبعيَّة، استُعير الغنى فيها للإفادة، يعني: لا تفيد، والجامع حُصول النّفع في كلٍّ منهما، وسدُّ الحاجة، والذين لا يؤمنون فقراء محتاجون لأسباب الهداية، ومع وجود تلك الأسباب ظلُّوا فقراء؛ لأنَّهم لم يتنفعوا منها؛ لإعراضهم عنها(2).

بلاغةُ المجاز العقلي:

الآيـاتُ والنُّـذر أسبابٌ للهداية

في إسناد ﴿تُغۡنِ﴾ إلى الآيات مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الآيات والنذر أسباب ذلك الغنى المنتفي في حقِّهم؛ لعدم الأخذ بها، والعناية بمضمونها بوصفها سبلَ هداية، وطرق فلاح(3).

بلاغةُ تذييل في الآية:

الجملةُ المتمِّمة، تجري مجرى الأمثال، وتقوّي ما سبق من مقال

جملة ﴿وَمَا تُغۡنِ ٱلۡأٓيَٰتُ﴾، ذُيِّلَتْ بها جملة: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيجوز أن تكون متمِّمة لمقول القول ممّا أمر النَّبيُّ ﷺ أن يقوله لهم، ويجوز أن تكون استئنافَ كلام من الله تعالى، والمعنى: أبلِغهم ما أمرت بتبليغه إليهم، وليست تغني الآيات عن قوم، لا يؤمنون، أي: الَّذين جعل الله نفوسهم لا تؤمن(4)، ويكون بهذا تذييلًا جاريًا مجرى المثل.

معنى (الآيات) وسرُّ التَّعبير بها:

الآيـاتُ دلائـل قويَّةٌ، وبراهين واضحة جليَّةٌ

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِ ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ أي: الأدلة، فهي وإنْ كانت ظاهرة،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/145، والثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/269، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.

فما تُغني إذا كانت البصائر مسدودة، كما أنَّ الشُّموس وإنْ كانت طالعة، فما تُغني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِمُقْلَتِهِ *** إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ[1]

والدَّلائل المقصودة هُنا إمَّا أن تكون من عالم السَّموات، أو من عالم الأرض، أمّا الدَّلائل السَّماوية، فهي حركات الأفلاك، ومقاديرها وأوضاعها، وما فيها من الشَّمس والقمر والكواكب، وما يختصُّ به كلُّ واحد منها من المنافع والفوائد، وأمَّا الدلائل الأرضيَّة؛ فهي النَّظر في أحوال العناصر العلويَّة، وفي أحوال المعادن وأحوال النَّبات، وأحوال الإنسان بخاصَّة، ثُمَّ ينقسم كلُّ واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها، ولو أنَّ الإنسان أخذ يتفكَّر في كيفيَّة حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة؛ لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقلِّ مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شكَّ أنَّ الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدَّلائل في القرآن المجيد، فلهذا السَّبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ولم يذكر التَّفصيل، فكأنَّه تعالى نبَّه على القاعدة الكليَّة، حتَّى إنَّ العاقل يتنبَّه لأقسامها، وحينئذٍ يشرع في تفصيل حكمة كلِّ واحد منها، بقدر القوَّة العقليَّة والبشريَّة[2]، فحسُنَ وقعُ التَّعبير عنها بالآيات هُنا، وكان التَّعبيرُ بالآيات كالإظهار في مقام الإضمار[3].

دلالة عطف (النُّذُر) على (الآيات):

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، زيدت (النُّذُرُ)، فعُطِفت على الآيات لزيادة التَّعميم في هذه الجملة، حتَّى تكون أوسع دلالةً

مـن لا تـنـفـع فيه الدلائل ولا المخوِّفات منكِرٌ جاحدٌ

(1) عبد الكريم القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/117. والبيت للمتنبّي في ديوانه، ص: 323، وهو فيه بلفظ (ناظره) لا (مقلته).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/306.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.

من الَّتي قبلها، ولتكونَ كالتَّذييل لها، وذلك أنَّ القرآن جاء للنّاس بالاستدلال وبالتَّخويف، ثُمَّ سُجِّل على هذا الفريق، بأنَّه لا تنجع فيه الآيات والأدلَّة، ولا النُّذر والمخوِّفات[1].

اشتركوا في الأحوال خيرِها وشرِّها

وعطف (النذر) على (الآيات) هو من عطف الخاصِّ على العام؛ لأنَّ الآياتِ تكون في الخيرِ والشرِّ، والنُّذر لا تكون إلا في الشَّرِّ، والجمع بينهما إعلامٌ بأنَّ حالهم في المطمع، والمفزع سواء[2].

دلالةُ استعمالِ لفظ (النُّذر) بدَلَ (الرُّسُلِ):

بيانُ عمومِ لفظة النُّذر وشمولها للرُّسل وغيرهم

النُّذُرُ جمع نذير، على أنَّه فعيل بمعنى: مُنْذِر، أو على أنَّه مصدر، أي: لا تنفع الآيات الأنفُسيَّة والآفاقية الدّالَّة على الوحدانيَّة، والرُّسل المنذرون أو الإنذارات شيئًا[3]؛ فالنُّذُرُ يشمل الرُّسل والعلماء وغيرهم، كالشَّيب وموت الأقران[4].

فائدة تقديم ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾:

بيانُ عدمِ انتفاعهم بالآيات الكونيَّة، ولا بالآيات المتلوَّة الرَّبانيَّة

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، أي: إنَّ الآيات الكونيَّة على ظهور دلالتها، والرُّسل على بلاغة حُجَّتها، لا تُجدي نفعًا لقوم لا يُتَوقَّع إيمانهم؛ لأنَّهم لم يُوَجِّهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها، على ما تدلُّ عليه من وحدانيَّة اللّٰه وقدرته، والاعتبار بسننه في خلقه، والاستفادة منها فيما يُزكّي النَّفس، ويرفعها[5]، فلا تنفعهم الآياتُ الدّالَّة على وحدة الذّات المتجلّية، في عموم الكوائن والجهات، ولا تكفيهم أيضًا النُّذُرُ المبيَّنون المنبَّهون على مدلولاتها[6] بالآيات المتلوَّة، فلم تغنِ الآياتُ المتلوَّة عنهم، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(3) البروسويّ، روح البيان: 4/85.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/59، وعلي المهائميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنّان: 1/336.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/159.
(6) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/344.

لم تغنِ آياتُ السَّموات والأرض[1]. وفي هذا التَّقديم للآيات على النُّذر بيانٌ لعدم انتفاعهم بالآيات الكونيَّة الجليَّة على وجه العموم، وبالنُّذر الَّذين جاؤوهم بالآيات المتلوَّة المُنَبِّهة على مدلولاتها على جهة الخصوص، فهو تخصيص بعد تعميمٍ.

وإنَّ الأصل في الدَّعوة، والتبليغ، والتوعية - أيًّا كان مصدرها - التَّبصرةُ قبل الوعيد، والدعوةُ إلى التفكُّر والتَّدبُّر قبل التخويف والتحذير.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

الإشـــارةُ إلى تحقيرِ شأنِهم، وتسفيه عقولهم

القومُ في قوله تعالى: ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ الجماعة من الرِّجال، ويطلق على قبيلة الرَّجل، ويطلق على الأمَّةِ، وقد جيءَ بهذا اللَّفظ منكَّرًا في مقام نفي الإيمان عنهم، تحقيرًا لشأنِهم وتسفيهًا لعقولهم الَّتي حجبتهم عن رؤيةِ الآيات الواضحات، والحُججِ البالغات.

نكتةُ إجراء الوصفِ بالجملة الفعليَّةِ المنفيَّةِ على لفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

الـــوصـــفُ اســـتـــدلالٌ عـلى الـسَّـجـيَّـة الـرّاسـخـة في الموصوفين

لفظ ﴿قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يُفيد أنَّ انتفاء الإيمان عنهم وصف عُرِفوا به، وأنَّه مُستقرٌّ من نفوسهم؛ لأنَّ اجتلاب لفظ ﴿قَوْمٍ﴾ هُنا مع صِحَّةِ حُلول غيره محلَّه يُشير إلى أنَّ الوصف المذكور بعده من مقوِّمات قوميَّتهم؛ لأنَّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: (عَمَّن لا يؤمنون)، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها، وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التَّوبة: 56]، وقد تكرَّر هذا في مواضع كثيرة من القرآن ومن كلام العرب، أي: قومٌ هذه سجيَّتُهم، وهو هُنا أبدعُ؛ لأنَّه عَدَلَ به عن الإضمار، وهذا من بدائع الإعجاز هُنا[2].

(1) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 6/319.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصار والرُّؤية والنَّظر:

الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يميِّزه التَّأمُّل

النَّظر عبارة عن تقليب العين نحو المرئيِّ التماسًا لرؤيته، وأصل مادَّة (نَظَرَ) في اللُّغة: تأمُّل الشَّيءِ ومُعاينته، فهو طلب ظهورِ الشَّيء، ويكون النّاظر الطَّالب لظهور الشَّيء بإدراكه من جهة حاسَّة بصرهِ أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلب من جهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[1]، والرُّؤية: هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤية من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب[2]، كما ورد في حكاية عن طلب موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُب جماعة الهلال، فيراه جماعة منهم، ولا يستطيع الآخرون رؤيتَهُ مع أنَّهُم جميعًا ناظرون[3]؛ فالفرق بينهما: أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبصر نحو المرئيِّ. أمّا البصر هو إدراك العين، ويُطلق على القوَّة الباصرة الَّتي من شأنِها إدراك أشباح الصُّور[4]، وأصل مادَّةِ (بصر) في اللُّغة وضوح الشَّيء، والعين هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصر ليدلَّ على العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بصر بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصير به[5]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرق بين النَّظر والبصر، كالفرق بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى:

(1) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(3) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.
(5) نشوان الحميري، شمس العلوم: 1/544.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: 198]. وخُلاصة القول في الفرق بينهم أنّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّل، ولذلك اختير في الآية مرادًا به استعمالُه فيما يصلح للنَّظر القلبيِّ والنَّظر البصريِّ؛ لكون الحديث يدور حول التَّحرُّر من ظلمات الوهم، ومن غشاوات الضَّلالة، إلى أنوار الاهتداء؛ وهذا صنيعٌ قوامه التأمُّل والتفكُّر.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»